**المعاينة في البحث السوسيولوجي**

**مدخل**

كنا قد توقفنا في اللقاءات السابقة عند مرحلة ( متطلب منهجي) أساسية في سياق تحضير عملية التحقق الأمبريقي، ألا وهي : مرحلة بناء نموذج التحليل ،وفيها كنا قد لاحظنا أن استيفاء هذه الخطوة ،سيُمكن الباحث من تحديد نطاق الدراسة الميدانية ،ومعرفة نوعية المعطيات المطلوبة ،وأين يجدها ،وأكثر من ذلك ،فإنه سيتمكن من وضع نظام لقراءتها ورؤية دلالاتها السوسيولوجية بالمقارنة مع النموذج التصوري الذي وضعه(تحضير عملية بناء المقولات)،وذلك من خلال عمليات : تحديد وبناء المفاهيم ،ثم استنباط أو استنتاج فرضيات الدراسة

لذلك نتوقع أن الباحث الذي اشتغل بشكل جيد ودقيق في مرحلة بناء نموذج التحليل ،وحصل على تفكيك حقيقي لمفاهيم الدراسة ومتغيراتها وحولها إلى صور (معطيات) قابلة للملاحظة والعد أو القياس ....الخ،إضافة إلى عمله على رسم شبكة العلاقات والتجاذبات الموجودة بين هذه المعطيات ( ولدينا أمثلة متنوعة ناتجة عن مقاربات مختلفة لمواضيع من تخصصنا ،مثال الإضرابات العمالية ،التغيب في العمل أو الدراسة ، أنظر المحاضرات السابقة) ،سيتحدد لديه شيء أساسي لا يمكن الاستغناء عنه ،في مرحلة المعاينة ألا وهو : نطاق الدراسة أو المجتمع الإحصائي (أي سيحصل على إجابات عن الأسئلة التالية : ما هي حدوده ؟،ماهي خصائصه وطبيعته؟ ،ما هو حجمه؟) ،وعندها فقط سيباشر تحقيق متطلبات المرحلة القادمة بتبات وثقة ،والتي نسميها :**المعاينة**

1**) في المفاهيم**

إن الحديث عن مفهوم **المعاينة** يحيلنا إلى معنيين **: معنى عام للمعاينة** يشير إلى كل العمليات (المعرفية الابستمولوجية والسلوكية الإجرائية) التي يتطلبها التحقق الامبريقي وشروط تطبيقها لمراقبة الظاهرة ميدانيا ،**ومعنى خاص** يشير إلى العملية التقنية التي من )échantillonnageخلالها يتم استخراج عينة (جزء)من مجتمع الدراسة (

كما أن مفهوم **المجتمع الإحصائي أو مجتمع البحث أو عالم البحث** كما يسميه البعض ،يشير إلى **نطاقين** : الأول يمكن تسميته **بالمجتمع المقصود** ،ويشير إلى كل العناصر (أفرادا أو جماعات أو منظمات أو أشياء) التي تشير إليها عناصر الظاهرة محل الدراسة ،مثل العمال الصناعيين أو المؤسسات العمومية أو الطلبة أو الشباب ، وهي كل **عناصر الفئة النموذجية المستهدفة للتعميم** ،فالباحث وهو يدرس مثلا محددات الولاء التنظيمي لدى العمال الصناعيين ،فهنا المجتمع المقصود هو كل العمال الصناعيين وربما في العالم كله، لأن نتائج الدراسة ستنتج معارف علمية ونظريات وقوانين للتعميم على هذا المجتمع والفئة المقصودة .

وهناك **المجتمع المتاح** ،وهو المجتمع (المحلي)الذي ستجرى عليه فعليا وتطبق الدراسة ، وفي مثالنا السابق ،قد يكون عمال مؤسسة إنتاج الكهرباء بالطاهير ،وعمال مصنع الحديد والصلب ببارة هم المجتمع المتاح ،وبالتالي مجتمع البحث أو مجتمع الدراسة...وهكذا ،لذلك فإذا تحدثنا عن مجتمع البحث هنا (بغرض التدريب والدراسة) فنحن سنتحدث عن المعنى المتضمن في مفهوم المجتمع المتاح

وحتى تتم المعاينة (بالمعنى العام) بنجاح وموثوقية ،يحتاج الباحث لتقييم الإمكانيات المتاحة للبحث (وقت ،وجهد ،وعدد المساعدين وإمكانيات التمويل ..الخ) وطبيعة مجتمع البحث (من حيث تجانسه أو عدم تجانسه) وإمكانية ملامسة كل عناصره ووحداته والجدوى العلمية والاقتصادية من ذلك ،لأجل اتحاد القرار بنوعية المعاينة المناسبة ،التي تحقق أهداف الدراسة الميدانية .

بناءا على هذا التقييم يجد الباحث أمامه شكلين أو نمطين ممكنين من المعاينة **: المعاينة بالمسح الشامل أوالمعاينة بالعينة** فما هو **المسح الشامل** ؟وماهو**المسح بالعينة ؟**

**المسح الشامل** يعني ممارسة المعاينة ،من خلال ملامسة كل العناصر التي يتكون منها المجتمع الإحصائي (المتاح) ،فإذا كانت دراستنا تعنى بقراءة ظاهرة الاحتجاجات الطلابية في جامعة جيجل ،فان المسح الشامل يتطلب اعتبار كل طلبة جامعة جيجل عناصر بحث يجب إخضاعها للفحص

**المسح بالعينة** بمعنى ممارسة المعاينة ،من خلال الاكتفاء بأخذ الجزء وإخضاعه للفحص بدل أخد الكل ،فضمن شروط حددها علم الإحصاء لأساليب اختيار جزء من عناصر الكل مع ضمان تمثيلية هذا الجزء للكل (**العينات الاحتمالية)**،فانه يصبح الإصرار على ملامسة كل العناصر(المسح الشامل) بمثابة هدرا للجهد والمال ،إضافة إلى أن ذلك لن يؤثر على النتيجة ،وفي ذلك يقول أحد المشتغلين في المجال : "ليس من الضروري أن تأكل الثور كله ،لتتأكد أن لحمه طريا "

لذلك تعتبر طريقة المسح بالعينة ،الطريقة الأكثر استعمالا في البحوث لاسيما الاجتماعية منها ، **فالعينة هي : "مجموعة فرعية من عناصر مجتمع بحث معين" وهي :" نموذج مصغر عن المجتمع الكلي ،يحمل صفة التمثيلية ،يؤخذ بغية الوصول إلى نتائج قابلة للتعميم على المجتمع الذي أخد منه "**

وعليه فتعيين الجزء الذي سندرس من خلاله هذا الكل لا يتم بطريقة اعتباطية، فهناك اعتبارات وضوابط تحكم هذه العملية.

**2) الاعتبارات الواجب مراعاتها لتصميم المعاينة ، أهمها:**

- التحديد الجيد للمشكلة : ويقصد به وضع حدود واصفة لموضوع الدراسة تميزه عن المواضيع المشابهة والمرتبطة به ،وتوضح الأبعاد التي تركز عليها الدراسة

- تحديد وتعريف المجتمع المراد معاينته: حيث لا يكفي تحديد موضوع الدراسة بل لابد من تحديد وتعريف المجتمع الأصلي الذي تؤخذ منه العينة ،أي تعريف المجتمع الإحصائي تعريف دقيق وتعيين حدوده وحجمه وتحليل العناصر الداخلة فيه

- تحديد البيانات المطلوب جمعها،فعند السؤال عن دخل الأسرة فانه وجب تحديد القصد من ذلك ، هل المقصود هو :السنوي،الشهري ،اليومي ؟ من العمل الأصلي فقط أم أيضا ما دخله من الأعمال إضافية

- النظر في طبيعة مفردات هذا المجتمع (أفراد ،أو جماعات أ, تنظيمات أو أشياء ،أ, مستندات ...الخ وماهي خصائصه) ، وان كان متجانسا أم لا ،فمثلا علماء البحار يكفيهم أخد كأس من مياه البحر في منطقة للنظر في درجة ملوحتها (لأن مياه البحر وسط متجانس) والأمر ليس ذاته في المجتمع

- تحديد نوع العينة: أي هل نأخذ عينة بطريقة عشوائية أم بطريقة قصدية ،ثم ما نوع العينة التي تتناسب مع طبيعة دراستنا وتحقق أهدافها

**3) أنواع المعاينة**

هناك نوعان رئيسيان من المعاينات:

**أ – العينات الاحتمالية** : تتميز العينات الاحتمالية بكون كل مفرداتها كانت لها نفس الاحتمالات المعروفة والغير معدومة للظهور في العينة ،والعينات الاحتمالية هي :

**أ 1 ) – العينة العشوائية البسيطة** : وهي عينة تختار بطريقة عشوائية ،حيث يؤخذ العدد المناسب من المفردات (النسبة التمثيلية) بطريقة الحظ بعد أن يكون الباحث قد وفر شروط تساوي الفرص لكل المفردات ،وعملية تنفيذها واستخراج مفرداتها ،يكون عن طريق الجداول الاحتمالية 3(الموجودة في نهاية كل كتب الإحصاء) ،أوصناديق الاقتراع ،أو عن طريق استعمال رميات لزهرة النرد ،حيث تستخرج المفردات بطريقة الحظ وفي عملية واحدة (طريقة مباشرة)

**أ 2) – العينة العشوائية المنتظمة :** تعد هذه التقنية امتداد للتقنية السابقة (البسيطة) لكونها تعمل على توفير الشرط الأساسي للمعاينة الاحتمالية (التمثيلية) من خلال إعطاء نفس الفرص لكل المفردات في الظهور ،غير أنها تختلف عنها في طريقة اختيارها للمفردات ،بحيث تمتلك نظاما معروفا لذلك ،ويعتمد على :

- ترقيم كل المفردات - حساب المدى ،بقسمة عدد الأفراد على عدد أفراد العينة

- اختيار عشوائي لرقم لا يفوق قيمة المدى (أقل أو يساوي)، ويعتبر رقم المفردة الأولى

- بإضافة قيمة المدى لرقم المفردة الأولى، نحصل على العنصر الموالي والعناصر الأخرى (من خلال الاستمرار بإضافة قيمة المدى) حتى نحصل على العدد المطلوب

**ملاحظة:**

تتميز هذه الطريقة في المعاينة ببساطتها ،وبوجود نظام معد سلفا لاختيار وحدات العينة ،وهي الميزات التي جعلت منها الطريقة الأكثر استعمالا في البحوث السوسيولوجية ،غير أنه علينا التنبيه بأن اعتماد هذه الطريقة بدون حذر قد يعرض الباحث إلى أخطاء في المعاينة ،كاختيار عناصر بذاتها دوريا من قوائم تعتمد على معايير في بنائها ،مثل أن تجد قوائم العمال مرتبة من الأقدم إلى الأحدث ،والطلبة الناجحون ثم المعيدون ،والذكور ثم الإناث ...الخ

- يذكر أن هناك أنواع أخرى للعينات ،وهي مشتقة من هذه الأنواع الأساسية ،مثال ذلك عينة المجموعات ،وهي عينة نأخذ فيها المجموعة (فرق كرة مثلا أو مديريات تربية الخ) بدل الفرد ،وهناك العينة العنقودية ،وهي التي نختار (بطريقة عشوائية أيضا بطريقة بسيطة اومنتظمة أو طبقية) فيها في مرحلة أولى مجموعات أو تنظيمات ثم ننزل إلى اختيار أقسام ثم أفراد وهكذا

**أ3) – العينة العشوائية الطبقية :**

إن دقة التقدير في مسألة التمثيلية تتوقف على حجم العينة ،كما تتوقف على مدى تجانس أو عدم تجانس المجتمع الإحصائي ،وللتغلب على هذه الصعوبة علينا تقسيم المجتمع البحث إلى طبقات متجانسة من حيث الخصائص التي تعنى بها الدراسة الراهنة ،والمعاينة بهذه الطريقة تسمى العينة الطبقية.

فبموجب هذه الطريقة ]قسم المجتمع الإحصائي إلى أجزاء أو مجموعات (طبقات) تكون متجانسة ،تم يحدد الباحث قيمة التناسب بين الطبقات (من حيث حجمها قياسا بأحجام المجموعات الأخرى) ،ثم يأخذ عن كل طبقة مقدار من الوحدات يتناسب مع حجمها ،ويعتمد في ذلك على نظام الاستخراج العشوائي المنتظم (أنظر كيفية استخراج عناصر العينة المنتظمة)

**ملاحظات**:

تعد هذه الطريقة من أكفأ طرق المعاينة وأوثقها، وهي مستعملة كثيرا في الدراسات التي تتوخى الدقة والمصداقية، ذلك أنها

- تسمح بالوصول إلى بيانات ذات دقة محددة مطلوب معرفتها ،تخص أقساما فرعية لمجتمع البحث

- تسمح من خلال تقسيم المجتمع إلى طبقات متجانسة من استبعاد الوحدات المتطرفة (رئيس الجامعة مثلا، في بحث حول الرضا الوظيفي لموظفي الجامعة)

- تقليص أخطاء المعاينة

- تسهيل التنسيق بين الأعمال الميدانية، لأنها تسمح بتوزيع الأعباء على فريق البحث وبالتالي يمكن توزيع المهام والإشراف حسب كل فئة

على أنه لا ينصح بالمبالغة في تقسيم المجتمع إلى مجموعات صغيرة (فذلك من شأنه أن يصعب من عملية بناء المقولات وإيجاد الدلالات السوسيولوجية للمعطيات المشتتة) ،كما أن المعيار المعتمد لانجاز هذا التقسيم يجب أن يستلهم من الخصائص المتضمنة في متغيرات الدراسة ،كالمحذر الجغرافي ،أو المستوى الدراسي ،أو المركز المهني ...الخ

ب)- **عينات غير احتمالية (غير عشوائية)**:

وهي العينات التي لا يحكم عملية اختيارها أي شرط أو قيد ،سواء تعلق الأمر بحجمها أو تساوي الفرص بين مفرداتها أ, مدى تمثيليتها ،فذلك يعود في الغالب (في هذا النوع من المعاينات) إلى تقدير الباحث وحاجته لمعطيات بذاتها وأين وعند من يعتقد أنها موجودة ،وهي أنواع نذكر منها :

- **العينات العارضة** : وهي عينات تؤخذ بدون خطة مسبقة مثل سبر الآراء في الشارع أو عبر الهاتف

- **العينات بالحصص** : مثل أن نستدعي أو نقابل(بدون خطة ) مجموعة من الشباب ومجموعة من الشيوخ للحديث عن الروح الوطنية عند الفئتين

- **العينة العمدية** : وهي المعاينة التي يستهدف فيها الباحث أو صاحب الموضوع مجموعة خاصة كالقانونيين أو السوسيولوجيين أو رجال الدين ،لمعرفة رأي تلك الفئة في موضوع خاص الجريمة مثلا

- **عينة الكرة الثلجية** : وهي أهم نوع وأكثره استعمالا في البحوث السوسيولوجية ،لأن عملية الاختيار لا تتدخل فيها ذاتية الباحث ،ذلك أنه يعتمد في الحصول على مفردات الدراسة من المبحوثين أنفسهم ،حيث تبدأ العينة بإيجاد المفردة الأولى التي تحمل الخصائص المعنية بالدراسة ،ويُعتمد عليها في الحصول على مجموعة مفردات ،وهذه الأخيرة تُعطي مفردات أخرى وهكذا

وكما هو ملاحظ فالعينة تبدأ بمفردة واحدة وتبدأ في التوسع والكبر مثل الكرة الثلجية

**ملاحظة مهمة** :هذا النوع من المعاينة يستعمل بشكل كبير في الدراسات المتعلقة بالجماعات المغلقة كالمنحرفين والمدمنين والدعارة والمواضيع الحساسة بصفة عامة

-